

سِفْرُ أَيُّوبَ
المحاضرة ٢: الأَلَمُ وَالْمَعَانَاةُ

ديرىك توماس

الآن، انتقلوا معي إلى الأصحاح ٢ من سفر أيوب لتقرأ سوياً الآية الافتتاحية.

وكان ذات يوم أنه جاء بنو الله ليمثلوا أمام الرب، وجاء الشيطان أيضاً في وسطهم ليمثل أمام الرب.

الآن، تذكرون من المحاضرة الأولى، في الأصحاح ١، أن الشيطان كان قد جاء إلى محضر الله. في الأصحاح ١ والآية ٦ نقرأ: "وكان ذات يوم أنه جاء بنو الله ليمثلوا أمام الرب، وجاء الشيطان أيضاً في وسطهم. فقال الرب للشيطان: "من أين جئت؟". وفي نهاية الأصحاح ١، سمح للشيطان بتدمير حياة أيوب؛ وتدمير أسرته إذ فقد أبناءه ١٠، وخسارة أيوب كل ما له من ثروة. إذ كانت ثروة أيوب في صورة جمال ومواش وما إلى ذلك. كان رجلاً فاحش الثراء.

ثم في الأصحاح ٢. كان قد وضع حد للشيطان في الأصحاح ١ بأن يهلك كل ما لأيوب، لكن ألا يفترّب من أيوب نفسه. لكن الشيطان اشتكى قائلاً: "هل محجاناً في الآية ٩ من الأصحاح قائلاً: "هل محجاناً يتقي أيوب الله؟"، "هل محجاناً يتقي أيوب الله؟" أي أن السبب الوحيد لمخافة أيوب لله يكمن في الحياة الرغدة. إذ يمتلك كل شيء، فالحياة لم تفس على أيوب، فهو يتمتع برغد العيش. لكن ارفع عنه كل هذا، فإنه في وجهك يجدف عليك. أيوب لم يفترّف ذلك. ففي الآية ٢١ من الأصحاح ١، أجاب أيوب قائلاً: "الرب أعطى والرب أخذ فليكن اسم الرب مباركاً".

والآن قد أحضر الشيطان أمام الله مرة أخرى. فيعرفه الله بأن أيوب "رجل كامل ومستقيم يتقي الله ويحيد عن الشر. وإلى الآن هو متمسك بكماله، وقد هيّجتني عليه لأبتلعه بلا سبب" (الآية ٣)، "بلا سبب"، يالها من عبارة مثيرة للاهتمام، أليس كذلك؟ إنها الكلمة العبرية "هيئوم". بمعنى أن الله يقول للشيطان: "لقد هيّجتني لأؤذي عبدي أيوب إذ لم يكن هناك أي سبب وبلا أي داع". الأمر الذي قد يثير بداخلنا شعوراً بأن الحياة غير عادلة؛ وأنها حياة عشوائية. فإن كان الله ذاته يوقع أحداثاً بدون أن يكون لها أي سبب، وبلا أي داع لوقوعها، وعلى الأرجح بلا أي مبرر أو على الأقل يبدو كذلك. يبدو كذلك للشيطان. وأحياناً يبدو كذلك لنا. يفعل الله صنيعه حسب عنايته وحسب أمر سيادته. فهو يسمح بحدوث الأمور. ويبدو أنها بلا أي سبب. ويبدو أنها بلا أي داع.

لقد مررت بضيقة ما منذ ٢٠ سنة تقريباً، كانت ضيقة شخصية، ومسألة عائليّة. وأتذكر حديثي إلى صديق عزيز مقرب إليّ، كان أستاذاً للعهد القديم. وحدهم أساتذة العهد القديم من قد يكتبون ملاحظات مثل التالية وقال فيها: "لقد ينست من محاولة فهم العناية الإلهية، لكنني أتساءل إذا كنت قد اختبرت أحد اختبارات هيئوم هذه؟"

فَكَانَ عَلَيَّ الْبَحْثُ عَنْ مَعْنَى كَلِمَةٍ هَيْئَتُومَ هَذِهِ. فَأَدْرَكْتُ أَنَّهَا كَلِمَةٌ عِبْرِيَّةٌ، وَفَهِمْتُ أَنَّهُ كَانَ يَقْتَسِمُ مِنَ الْأَصْحَاحِ ٢ مِنْ سَفَرِ أَيُّوبَ بِأَنَّهُ يَبْدُو لَنَا أَحْيَانًا أَنَّ اللَّهَ يَصْنَعُ أُمُورًا غَيْرَ مَنْطِقِيَّةٍ، بِلَا أَيِّ سَبَبٍ، وَبِلَا أَيِّ مُبَرَّرٍ ظَاهِرٍ يُمَكِّنُنَا اسْتِيعَابُهُ.

أفكر في قصيدة "هجوم اللواء الخفيف" (Charge of the Light Brigade) للشاعر ألفريد لورد تينيسون (Alfred Lord Tennyson). وهي قصيدة عن القوات الروسية في حرب القرم في خمسينيات القرن التاسع عشر تقريبًا. ليس لنا أن نسأل لماذا. ما لنا سوى الذهاب والموت. أهكذا ينبغي أن نسعى للحياة وتجاربها وصعوباتها؟ لا نسأل عن سبب. لا نطلب مبررًا؟ نطيع فحسب. فنحن مجرد جنود في المعركة وليس لنا الحق في الاستفسار، أو السؤال عن العوامل التي خلفت سياسات وقرارات معينة. مهمتنا هي الطاعة فحسب. أن نطيع وتموت فحسب. هل الأمر هكذا؟

إنه يوم آخر. في الأصحاح ٢ والآية ١: "وكان ذات يوم أنه جاء بنو الله". يوم آخر. مرة أخرى، "وكان ذات يوم"، يومًا ثانيًا. لم نخبركم المدة الفاصلة بين اليوم الأول والثاني. وفي هذه المرة، أجاب الشيطان الرب؛ فيقول في الآية ٤:

جِلْدٌ بِجِلْدٍ، وَكُلُّ مَا لِلإِنْسَانِ يُعْطِيهِ لِأَجْلِ نَفْسِهِ. وَلَكِنْ ابْسُطِ الْآنَ يَدَكَ وَمَسَّ عَظْمَهُ وَلَحْمَهُ، فَإِنَّهُ فِي وَجْهِكَ يُجَدِّفُ عَلَيْكَ". فَقَالَ الرَّبُّ لِلشَّيْطَانِ: "هَا هُوَ فِي يَدِكَ، وَلَكِنْ احْفَظْ نَفْسَهُ".

أعطي الشيطان الإذن. هناك حدود له. "ولكن احفظ نفسه". وضع الله الحد. إذ قال: "إلى هذا الحد ولا تتخطاه. لكن داخل هذا الحد، داخل هذا الحد أو هذا الجانب من الحدود، لك أن تفعل ما يحلو لك، وما يروق لك. قد تمسه، لكن لا تثقله".

يُثِيرُ هَذَا دُفْعَةً مِنَ الْمَشْكَلاتِ، وَعَدَدًا مِنَ الْقَضَايَا، وَكَثْرَةً مِنَ الصُّعُوبَاتِ. يُثِيرُ قَضَايَا مُتَعَلِّقَةً بِالْعَافِيَةِ. أَلَا يَقُولُ الْبَشَرُ: "إِذَا كُنْتَ تَتَمَتَّعُ بِعَافِيَتِكَ، فَقَدْ مَلَكَتْ كُلُّ شَيْءٍ؟" الْبَشَرُ يَقُولُونَ هَذَا، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟ هَذَا لَيْسَ صَحِيحًا بِالطَّبَعِ، لَا مَعْنَى لَدَيْكَ. قَدْ تَمَتَّلِكَ كُلُّ شَيْءٍ، وَتُعَوِّزُكَ الْعَافِيَةُ. مَا وَقَعَ هَذِهِ الْفَلَسَفَةِ عَلَى شَخْصٍ مَرِيضٍ، شَخْصٍ سَقِيمٍ، شَخْصٍ أُصِيبَ بِالسَّرَطَانِ، وَيُصَارِعُ ضِدَّهُ؟ هَلْ فَقَدُوا كُلَّ شَيْءٍ؟ أَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونُوا سَعْدَاءَ؟ أَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يَجِدُوا الرِّضَا؟ أَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يَجِدُوا غَايَةَ مَنْطِقِيَّةً وَمَعْنَى لِلْحَيَاةِ وَفِيهَا؟ هَلْ فَقَدُوا كُلَّ شَيْءٍ لِأَنَّهُمْ مَرَضُوا؟

لا، نحن لا نُؤْمِنُ بِذَلِكَ. "احسبوه كل فرح يا إخوتي حينما تقعون في تجارب متنوعة" يعقوب الأصحاح ١ والآية ٢. وسيسْتَظِرُّدُ يَعْقُوبُ لِيَتَحَدَّثَ عَنْ أَيُّوبَ فِي الْأَصْحَاحِ ٥ مِنْ رِسَالَتِهِ.

لَقَدْ اخْتَبَرَ أَيُّوبُ الْمَرَضَ، مَرَضًا يُشْبِهُ مَا نَعْرِفُهُ بِاسْمِ الإِيذُرُ رَبَّمَا، حَيْثُ يَخْوَرُ الْجَسَدُ وَتَتَفَشَّى الْقُرُوحُ عَلَى الْبَشَرَةِ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ. يُوضِّحُ السِّفْرُ بَعْضَ خَوَاصِّ هَذَا الْمَرَضِ. إِذْ بَدَأَ أَنْ أَسْنَانُهُ قَدْ تَسَاقَطَتْ، وَأَنْفَاسُهُ عَفِنَتْ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ. ثُمَّ إِنَّ عِبَارَةَ "جِلْدٍ عَلَى عَظْمٍ" قَدْ أَتَتْ مِنْ سِفْرِ أَيُّوبَ. مَرَضٌ مِنْهُكَ. وَقَدْ حَاوَلَ الْبَعْضُ تَصْنِيفَهُ عَسَى يَكُونُ ذَاءَ الْفِيلِ. فِي الْآيَةِ ٨ مِنَ الْأَصْحَاحِ ٢ نَقَرْنَا وَضَفْنَا دَقِيقًا يَقُولُ: "فَأَخَذَ لِنَفْسِهِ شَقَفَةً لِيَحْتَكَّ بِهَا وَهُوَ جَالِسٌ فِي وَسْطِ الرَّمَادِ". تِلْكَ الْقُرُوحُ الَّتِي يَرْعَبُ الْمَرءُ فِي حَكِّهَا، وَحِينَ يَشْرَعُ، لَا يَكْفُفُ عَنْ حَكِّهَا. سَادَفَعَكُمْ لِحِكِّ أَجْسَادِكُمْ الْآنَ. لَكِنَّ أَتَفْهَمُونَ؟ إِنَّهُ مَرَضٌ، لَكِنَّهُ أَشَدُّ مِنْ ذَلِكَ؛ إِنَّهُ مَرَضٌ يَهْدِدُ الْحَيَاةَ. وَمَرَضٌ يُشْعِرُهُ بِخَطَرِ فُقْدَانِ حَيَاتِهِ.

فَهَلِ الْمَرَضُ جُزءٌ مِنْ مَشِيئَةِ اللَّهِ لَنَا؟ هَلِ الْمَرَضُ جُزءٌ مِنْ حُطَّةِ اللَّهِ لَنَا؟ وَإِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ بِسَيَادَةِ اللَّهِ، إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ بِأَنَّ مَا مِنْ شَيْءٍ يَحْدُثُ خَارِجَ أَمْرِ اللَّهِ، كَمَا تَعْلَمُونَ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ يَحْدُثُ، لِأَنَّ اللَّهَ أَمَرَ بِجُدُوئِهِ، أَمَا مِنْ شَيْءٍ يَحْدُثُ خَارِجَ الْمَشِيئَةِ الْقَضَائِيَّةِ لِلَّهِ الْقَدِيرِ؟ إِذَا كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ بِهَذَا التَّوَجُّعِ مِنَ السِّيَادَةِ، سَتَرَوْنَ الْمَرَضَ جُزءًا مِنْ حُطَّةِ اللَّهِ وَقَصْدِهِ. لَا شَيْءَ يَخْرُجُ عَنْ سَيَادَتِهِ، حَتَّى السَّقَمُ وَالْمَرَضُ هُمَا جُزءٌ مِنْ حُطَّةِ اللَّهِ. لَكِنَّ هَذَا يُبَيِّنُ قَضَايَا مِثْلَ مُشْكَلَةِ الْأَلَمِ وَمُشْكَلَةِ الْمَعَانَاةِ. فَإِنَّمَا اللَّهُ يَفْتَقِرُ إِلَى الْقُوَّةِ إِمَّا يَفْتَقِرُ إِلَى الصَّلَاحِ. فَإِنَّ اللَّهَ ذَا سِيَادَةٍ، فَحَتْمًا سَيَفْتَقِرُ إِلَى الصَّلَاحِ - سَيَكُونُ غَيْرَ صَالِحٍ، أَوْ إِنَّهُ صَالِحٌ لَكِنَّ يَفْتَقِرُ إِلَى السِّيَادَةِ. هَذِهِ مُعْضَلَةٌ قَدِيمَةٌ الْعَهْدِ. كَيْفَ يَكُونُ كِلَاهُمَا صَحِيحًا، وَيَنْهَشُ الْمَرَضُ جَسَدَ أَبْنَائِهِ؟ فَقَدْ تُنْكِرُونَ قُدْرَتَهُ. قَدْ يَكُونُ هَذَا أَحَدَ الْمَسَارَاتِ الْفُلْسُفِيَّةِ اللَّاهُوتِيَّةِ الْمُتَّخَذَةِ: أَنْ تُنْكِرُوا قُدْرَتَهُ. كَمَا يَقُولُ مَثَلًا الْمُعَلِّمُ الْيَهُودِيُّ كُوشَنَر (Kushner) فِي كِتَابِ حِينَ يُصِيبُ الشَّرُّ الصَّالِحِينَ. حِينَ يَقَعُ الشَّرُّ عَلَى الصَّالِحِينَ، يَتَنَابَكَ شَكُّ حِيَالِ السِّفْرِ، بِأَنَّهُ مَا مِنْ إِنْسَانٍ صَالِحٍ. فَكُلُّنَا، أَجْمَعُونَ خُطَاةٌ. فَكُلُّنَا بِالطَّبِيعَةِ أَبْنَاءُ آدَمَ السَّاقِطُونَ، لَكِنَّ دَعْوَانَا نُعْطِي الْمُعَلِّمَ كُوشَنَرَ الْحَقَّ فِي هَذَا. حِينَ يُصِيبُ الشَّرُّ الصَّالِحِينَ، دَعْوَانَا نُعَدِّلُ الْعُنْوَانَ قَلِيلًا: حِينَ يُصِيبُ الشَّرُّ شَعْبَ اللَّهِ. حِينَ يُصِيبُ الشَّرُّ الْمُؤْمِنِينَ. فَالْمُؤْمِنُونَ يُصَابُونَ بِالسَّرَطَانِ. الْمُؤْمِنُونَ يُصَابُونَ بِالْحَرْفِ. الْمُؤْمِنُونَ يَفْقِدُونَ أَطْرَافَهُمْ، شَعْبُ اللَّهِ وَالْأَتْقَى مِنْ بَيْنِ شَعْبِ اللَّهِ.

أَسْتَحْضِرُ بَعْضَ الذِّكْرِيَّاتِ عَنْ أَصْدِقَاءِ لِي يُجِبُونَ الرَّبَّ وَيَخْدُمُونَهُ كُوعَاظٍ. أَتَذَكَّرُ جَلِيلًا وَاعِظًا أَمِينًا عَزِيزًا وَغَالِيًا عَلَى قَلْبِي، أَحَبَّ الْحَقِّ وَأَحَبَّ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ وَأَحَبَّ عَقَائِدِ النِّعْمَةِ. أَذَكُرُ أَنَّهُ ذَاتَ مَرَّةٍ كَانَ الْكِتَابُ الْمُقَدَّسُ عَلَى رُكْبَتَيْهِ لَكِنَّ مَقْلُوبًا، وَيَتَلَفَّظُ بِكَلِمَاتٍ بَدِيعَةٍ. كَانَ قَدْ فَقَدَ الْقُدْرَةَ عَلَى إِدْرَاكِ الْوَاقِعِ تَمَامًا. فَقَدْ كَانَ قَدْ تَاهَ فِي غَيْبَةٍ بَعِيدَةٍ. لَمْ أَسْتَطِعْ حَتَّى التَّوَاصُلِ مَعَهُ مِنْ بَعْدِهَا. وَأَتَذَكَّرُ اجْتِمَاعِي لِلصَّلَاةِ مَعَهُ ذَاتَ مَرَّةٍ، وَكَانَ يَلْعَنُنِي. هَذَا كَانَ وَاعِظًا بِالْإِنْجِيلِ، وَفِي قَرَارَةٍ نَفْسِي، أَتَسَاءَلُ: "لِمَاذَا يَا رَبِّي؟ لِمَاذَا هَذَا الرَّجُلُ؟ إِنَّهُ رَجُلٌ صَالِحٌ، إِنَّهُ رَجُلٌ تَقِيٌّ، فَقَدْ قَضَى حَيَاتَهُ بِأَسْرَهَا يُنَادِي بِعَقَائِدِ النِّعْمَةِ وَيَعِظُ بِالْإِنْجِيلِ، وَقَدْ اسْتَحْدَمْتَهُ أَنْتَ بِقُدْرَتِكَ؟ وَالْآنَ، وَفِي حَرِيفِ حَيَاتِهِ، يَبْدُو وَكَأَنَّهُ سُمِحَ لِلشَّيْطَانِ أَنْ يُوقَعَ بِهِ أَشْرَّ تَجَارِيهِهِ. لِمَاذَا؟"

رَبَّمَا اللهُ لَيْسَ بِالْقُوَّةِ الَّتِي تَظُنُّهُ بِهَا. هَذَا مَا يَرُدُّهُ الْمُعَلِّمُ كُوشَنَرُ بِقَوْلِهِ حِينَ يُصِيبُ الشَّرَّ الصَّالِحِينَ. اللهُ لَيْسَ، اللهُ لَيْسَ مُتَسَلِّطًا؛ الشَّيْطَانُ هُوَ الْمُتَسَلِّطُ. نَحْنُ نَحْيَا فِي عَالَمٍ ثِنَائِي الْقُوَى؛ فَأَحْيَانًا يَكُونُ اللهُ هُوَ الْمُتَسَلِّطُ، وَفِي أَحْيَانٍ أُخْرَى، يَكُونُ الشَّرُّ هُوَ الْمُتَسَلِّطُ. الشَّيْطَانُ هُوَ الْمُتَسَلِّطُ. الْأَمْرُ يُشْبِهُ رَمِي عُمَلَةَ لِلْقُرْعَةِ. بِحَسَبِ إِلَى أَيِّ جَانِبٍ تَقْفُ. بِحَسَبِ فِي أَيِّ إِطَارٍ زَمِيٍّ تَكُونُ. بِحَسَبِ أَيِّ رَقْمٍ بَرِيدِيٍّ تَتَّبِعُ. فَرُبَّمَا تَتَّبِعُ رَقْمًا بَرِيدِيًّا لِمِنْطَقَةٍ تُسَيِّطِرُ عَلَيْهَا السِّيَادَةُ، ثُمَّ تَسْلُكُ الطَّرِيقَ السَّرِيعَ ثُمَّ تَنْعَطُ وَفَجْأَةً تَجِدُ نَفْسَكَ فِي عَظْفَةٍ أَوْ زُقَاقٍ. فِي ثُقْبٍ، أَوْ فِي طَيَّةٍ فَضَائِيَّةٍ فِيهَا الشَّرُّ هُوَ الْمُتَسَلِّطُ. الشَّرُّ هُوَ الْمُسَيِّطِرُ. فَهَذَا هُوَ الْعَالَمُ الَّذِي نَحْيَا فِيهِ. هَذَا الرَّأْيُ أَحَدُ الْحُلُولِ لِمَشْكِلةِ الْأَلَمِ.

بَيْنَمَا الْآخَرُ يَتَمَثَّلُ فِي نُكْرَانِ صَلَاحِ اللهِ. اللهُ ذُو سِيَادَةٍ نَعْمَ، لَكِنَّهُ لَيْسَ بِالضَّرُورَةِ صَالِحًا؛ أَيُّ أَنَّهُ لَيْسَ صَالِحًا بِالنَّحْوِ الَّذِي تَرَاهُ عَلَيْهِ صَالِحًا. الْإِسْلَامُ مَبْنِيٌّ عَلَى هَذَا. الْإِسْلَامُ يَتَّبِعِي السِّيَادَةَ، مَشِيئَةَ اللهِ. فَكُلُّ شَيْءٍ ضَمَّنَ مَشِيئَةَ اللهِ. بَعْضُ النَّظَرِ عَنِ مَا هِيَئِهِ، إِنَّهُ مَشِيئَةُ اللهِ. فَتُعْتَصَبُ النِّسَاءُ وَيُهْتَكُ الْأَطْفَالُ وَتُقَطَّعُ الرُّؤُوسُ بِأَيِّ سَبَبٍ وَاضِحٍ، سِوَى أَنَّهُ مَشِيئَةُ اللهِ. فَالصلَاحُ مِنَ الصِّفَاتِ الثَّانَوِيَّةِ فِي عَقِيدَةِ اللهِ فِي الْإِسْلَامِ.

أَوْ تُتَكْرَرُ الْأَلَمُ ذَاتَهُ، بِالْقَوْلِ إِنَّ الْأَلَمَ لَيْسَ وَاقِعِيًّا. الْأَلَمُ مُجَرَّدُ أَمْرٍ عَيْبِيٍّ مِنْ نِتَاجِ حَيَالِكَ. مَارِي بِيكِرِ إِيْدِي (Mary Baker Eddy) مُؤَسَّسَةُ طَائِفَةِ الْمَسِيحِيَّةِ الْعِلْمِيَّةِ. تَرُوقُ لِي هَذِهِ الْمُزْحَةُ الْفُكَاهِيَّةُ. وَيَنْبَغِي لَكُمْ مَعْرِفَةٌ أَنَّ دِيْل (Deal) مَكَانٌ فِي مَدِينَةِ كِنْت (Kent) بِالْقُرْبِ مِنْ رَامزَجِيْت (Ramsgate)، جَنُوبِي شَرْقِي إِنْجِلْتْرَا. فَقَدْ قَالَ عَالِمُ مَسِيحِيٍّ مِنْ دِيْل ذَاتَ مَرَّةٍ: "عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ لَيْسَ وَاقِعِيًّا، حِينَ أَجْلِسُ عَلَى دَبُوسٍ فَيَخْتَرِقُ بَشْرَتِي، فَلَا يَرُوقُ لِي مَا أَتَخَيَّلُ أَنِّي أَشْعُرُ بِهِ. عَلَيْكَ بِالْتَمَعْنِ فِي الْأَمْرِ، لَكِنَّهَا مُزْحَةٌ صَغِيرَةٌ جَمِيلَةٌ عَنِ الطَّبِيعَةِ غَيْرِ الْمُنْطَقِيَّةِ لِلتَّظَاهِرِ بِأَنَّ الْأَلَمَ لَيْسَ حَقِيقِيًّا. لِأَنَّكَ بِالتَّأَكِيدِ تَحْتَرِ ذَلِكَ، لَكِنَّكَ "تَتَوَهَّمُ" أَنَّكَ فَقَطْ تَحْتَرُهُ، عِنْدَمَا تَجْلِسُ عَلَى دَبُوسٍ. بِالنِّسْبَةِ إِلَى غَالِبِيَّتِنَا هَذَا أَمْرٌ غَيْرٌ مُنْطَقِيٍّ تَمَامًا. الْأَلَمُ وَاقِعٌ حَقِيقِيٍّ فِي حَيَاتِنَا وَوَسَطَ عَائِلَاتِنَا وَفِي مَنَازِلِنَا وَفِي كَنَائِسِنَا وَفِي الْعَالَمِ مِنْ حَوْلِنَا.

فَالْعَالَمُ مُتَمَلِّئٌ بِالْجُرُوحِ وَالْأَمْرَاضِ. إِذْ إِنَّ الْمَرَضَ مُسَيِّطِرٌ عَلَى حَيَاةِ الْبَعْضِ، مُسَيِّطِرٌ عَلَى عَائِلَاتٍ وَعَلَى زِيَجَاتٍ. يُفَكِّرُ الْمَرءُ فِي طِفْلِ يُعَانِي السَّرَطَانَ وَيُعَالَجُ فِي الْمُسْتَشْفَى. مِنْ رَسَائِلِ تُرْسَلُ، كَمَا أُرْسَلُوا لِي الْأُسْبُوعَ الْمَاضِي، تُوجِي بِأَنَّ هَذَا الطِّفْلَ رَبَّمَا لَنْ يَعِيشَ طَوِيلًا. ثُمَّ، بِعِنَايَةِ اللهِ السِّيَادِيَّةِ، يَحْدُثُ تَحَوُّلٌ وَتَهْلُ الْأَخْبَارُ السَّارَةُ وَمُؤَشَّرٌ يَدُلُّ، رَبَّمَا، وَعَبَّرَ مَسَارَ طَوِيلٍ وَصَعْبٍ إِلَى حَدِّ مَا، بِأَنَّ الْأَمَلَ يَعُودُ مَرَّةً أُخْرَى. لَقَدْ جَازَ بَعْضُكُمْ بِهِذَا قَبْلًا. يَعْرِفُ بَعْضُكُمْ تَمَامًا مَا أَقْصَدُهُ.

هَلْ مَشِيئَةُ اللهِ الشِّفَاءُ دَائِمًا؟ مِنَ الْوَاضِحِ كَلَّا. فَعَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ، كَانَ تِيمُونَاوِسُ يُعَانِي آلامًا فِي الْمِعْدَةِ، رَبَّمَا فُرْحَةً، إِحْدَى تِلْكَ الْفُرَحِ الْمُلْتَهَبَةِ؛ رَبَّمَا عَانَى ارْتِجَاعًا حَمَضِيًّا، قَبْلَ زَمَنِ الْأَدْوِيَّةِ الْمَوْصُوفَةِ الْآنَ وَالْأَدْوِيَّةِ الْحَيِّدَةِ وَالْأَدْوِيَّةِ

الْفَعَالَةَ وَمَا إِلَى ذَلِكَ، فَنَصَحَهُ بُولُسُ قَائِلًا: "اسْتَعْمِلْ خَمْرًا قَلِيلًا مِنْ أَجْلِ مَعِدَتِكَ". كَانَتْ نَصِيحَةً لِأَغْرَاضٍ صَحِيَّةٍ، كَمَا تَعْلَمُونَ. أَوْ تَرَكَهُ لِثُرُوفِيمُسَ مَرِيضًا فِي أَفْسَسَ. هَذَا هُوَ الرَّسُولُ الَّذِي كَانَ يَمْتَلِكُ قُوَاتٍ لِصُنْعِ عَجَائِبٍ وَإِجْرَاءِ مُعْجِزَاتٍ. لَكِنَّهُ اضْطُرَّ أَنْ يَتْرَكَ ثُرُوفِيمُسَ خَلْفَهُ. فَحَتَّى بُولُسُ الرَّسُولُ لَمْ يَكُنْ بِاسْتِطَاعَتِهِ شِفَاءَ كُلِّ إِنْسَانٍ. ثُمَّ نَقَرَأُ فِي ٢ كُورِنْثُوسَ ١٢ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ قَادِرًا حَتَّى عَلَى شِفَاءِ نَفْسِهِ. كَانَ فِي جَسَدِهِ تِلْكَ الشُّوْكَهُ، أَيًّا كَانَتْ. فَرَبَّمَا كَانَتْ سَقَمًا فِي نَظَرِهِ، لِأَنَّهُ بِسَبَبِ شَيْءٍ مَا قَالَ إِلَى أَهْلِ غَلَاطِيَّةَ: "أُنظَرُوا، مَا أَكْبَرَ الْأَحْرُفِ الَّتِي كَتَبْتُهَا إِلَيْكُمْ بِيَدِي!" وَقَدْ صَلَّى ٣ مَرَّاتٍ مِنْ أَجْلِ أَنْ يُزِيلَهَا اللَّهُ، لَكِنَّ اللَّهَ لَمْ يَسْتَجِبْ وَلَمْ يُزِلْهَا. لِذَا لَا يُعَدُّ الشِّفَاءَ فِي مَشِيئَةِ اللَّهِ دَوْمًا. إِذْ يَقْصُدُ اللَّهُ لِبَعْضِنَا السَّيْرَ فِي طُرُقٍ صَعِيفٍ صِحَّةِ الْجَسَدِ وَصَعِيفِ صِحَّةِ الْعَقْلِ. مِنَ الْوَاضِحِ أَنَّهَا جُزْءٌ مِنْ مَشِيئَةِ اللَّهِ لِلْبَعْضِ مِنْ شَعْبِهِ، كَمَا كَانَ الْأَمْرُ لِأَيُّوبَ. مَرَضَ هُزَالٌ مِنْهُكَ مُرِيْعٌ أَوْشَكَ عَلَى وَضْعِ حَدِّ لِحْيَاتِهِ.

وَهُنَا نَتَعَرَّفُ عَلَى زَوْجَةِ أَيُّوبَ. فَنَحْنُ لَمْ نَسْمَعْ عَنْهَا قَبْلًا. فَتَتَعَرَّفُ عَلَى زَوْجَةِ أَيُّوبَ فِي نَهَايَةِ الْأَصْحَاحِ ٢. إِذْ نَقْرَأُ:

فَخَرَجَ الشَّيْطَانُ مِنْ حَضْرَةِ الرَّبِّ، وَضَرَبَ أَيُّوبَ بِفَرْجٍ رَدِيٍّ مِنْ بَاطِنِ قَدَمِهِ إِلَى هَامَتِهِ. فَأَخَذَ لِنَفْسِهِ شَقْفَةً لِيَحْتَكَّ بِهَا وَهُوَ جَالِسٌ فِي وَسْطِ الرَّمَادِ. فَقَالَتْ لَهُ امْرَأَتُهُ: "أَنْتَ مُتَمَسِّكٌ بَعْدَ بِكَمَالِكَ؟ بَارِكِ اللَّهَ وَمُتْ!".

"بَارِكِ اللَّهَ وَمُتْ!" وَالَّتِي جَاءَتْ فِي تَرْجُمَاتٍ أُخْرَى "جَدَّفْ عَلَى اللَّهِ وَمُتْ" أَوْ "الْعَيْنِ اللَّهُ وَمُتْ". عَلَى مَدَارِ الْقُرُونِ، لَمْ يَمْدَحِ الْمُفَسِّرُونَ زَوْجَةَ أَيُّوبَ. فَقَدْ أَشَارَ إِلَيْهَا أَوْغُسْطِينُوسُ بِوَصْفِ "دِيَابُولِي أَدِيوثْرِيكْسُ" (*diaboli adiutrix*). لَسْتُمْ بِحَاجَةٍ إِلَى مَعْرِفَةِ اللَّاتِينِيَّةِ لِتَعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ مَدْحًا. إِنَّهَا "مُسَاعِدَةُ الشَّيْطَانِ"، كَمَا قَالَ أَوْغُسْطِينُوسُ. أَمَّا كَالْفِنْ، الَّذِي أَلْقَى ١٥٩ عِظَةً مِنْ سَفَرِ أَيُّوبَ مِنْ عَامِ ١٥٥٤ إِلَى ١٥٥٥، عَلَى مَدَارِ ١٤ شَهْرًا. عِظَاتٍ لَمْ تُنَلَقْ فِي أَيَّامِ الْأَحَدِ. بَلْ كَانَتْ عِظَاتٍ تُنَلَقُ فِي مُنْتَصَفِ الْأُسْبُوعِ، عِظَاتٍ وَقْتُ الْعَدَاءِ فِي أَيَّامِ الْإِثْنَيْنِ وَالثَّلَاثَاءِ وَالْأَرْبَعَاءِ وَالْحَمِيسِ وَالْجُمُعَةِ، وَأَحْيَانًا فِي يَوْمِ الْأَرْبَعَاءِ التَّالِي؛ وَظَلَّتْ عَلَى هَذَا الْإِنْتِظَامِ الدَّوْرِيِّ. لَكِنَّ الْأَمْرَ اسْتَمَرَ ١٤ شَهْرًا، فِي مُنْتَصَفِ الْقَرْنِ ١٦. وَكَانَ كَالْفِنْ قَدْ أَشَارَ إِلَى زَوْجَةِ أَيُّوبَ بِوَصْفِ "أُورْجَانُومِ سَاتَانِي" (*organum satani*). مَرَّةً أُخْرَى، هُوَ لَا يَمْدَحُهَا بَلْ يَعْنِي أَنَّهَا "عُضْوٌ فِي الشَّيْطَانِ". أَمَّا تُوْمَا الْإِكُوِيْنِي فَقَالَ: "لَقَدْ اسْتَبَقَى الشَّيْطَانُ زَوْجَةَ أَيُّوبَ لِهَذَا الْغَرَضِ تَحْدِيدًا، فَكَانَتْ أَدَاتُهُ الَّتِي اسْتَحْدَمَهَا".

لَكِنَّ لَطَالَمَا شَعُرْتُ أَنَّ الْمُفَسِّرِينَ الْآخَرِينَ اتَّسَمُوا بِالْحِدَّةِ الْمُفْرِطَةِ فِي تَفْسِيرَاتِهِمْ لَزَوْجَةِ أَيُّوبَ الْمُسْكِينَةِ. كَمَا تَعْلَمُونَ، لَقَدْ فَقَدَتْ هِيَ أَيْضًا أَبْنَاءَهَا الْعَشْرَةَ. فَرَبَّمَا نَحْدُ تَفْسِيرًا وَسَطِيًّا لِهَذِهِ الْآيَةِ: فَهِيَ تَقُولُ لَزَوْجِهَا، بَعْدَمَا اسْتَنْتَجَتْ أَنْ سَبَبَ بَلِيَّتَيْهِمَا وَمَعَانَاتِهِمَا أَنَّ الرَّبَّ قَدْ لَعَنَهُمَا، فَهِيَ لَا تُرِيدُ رُؤْيَةَ زَوْجِهَا يُعَانِي الْمَزِيدَ، "بَارِكِ اللَّهَ وَمُتْ" وَأَنَّهُ الْأَمْرَ سَرِيْعًا".

أَمَّا جَوَابُ أَيُّوبَ فَكَانَ بِالطَّبَعِ: "تَتَكَلَّمِينَ كَلَامًا كَاِحْدَى الْجَاهِلَاتِ!" الْجَهْلُ بِالْمَفْهُومِ الْكِتَابِيِّ هُنَا. قَالَ الْجَاهِلُ فِي قَلْبِهِ: "لَيْسَ إِلَهٌ، بِهَذَا الْمَعْنَى. فَهِيَ تَكَلَّمْتُ مِنْ مَنْظُورٍ دُنْيَوِيٍّ شَرِّيرٍ. فَكَمَا لَوْ كَانَتْ تَتَحَدَّثُ مِنْ مَنْظُورٍ إِحْدَائِيٍّ. فَتَحَدَّثْتُ مِثْلَ النَّاكِرِينَ لَوْجُودِ اللَّهِ." "أَلْخَيْرُ نَقَبُلُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَالشَّرُّ لَا نَقَبُلُ؟ فِي كُلِّ هَذَا لَمْ يُخْطِئْ أَيُّوبُ بِشَفْتِيهِ." يَا لَهُ مِنْ تَصْرِيحٍ صَاعِقٍ مِنْ أَيُّوبَ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟ "أَلْخَيْرُ نَقَبُلُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَالشَّرُّ لَا نَقَبُلُ؟" مِنْ عِنْدِ اللَّهِ. كَمَا تَرَوْنَ، نَشَبْتُ أَيُّوبَ بِعَقِيدَةِ سِيَادَةِ اللَّهِ حَتَّى فِي مَرَضِهِ. لَا يَقَبُلُ الْخَيْرَ فَحَسَبُ، بَلِ الشَّرُّ أَيْضًا. لَكِنَّهُ لَمْ يَقُلْ إِنَّ اللَّهَ صَانِعُ الشَّرِّ. فَيَقُولُ إِفْرَارُ إِيمَانٍ وَسْتَمْنِسْتَرُ، عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ، وَإِفْرَارُ إِيمَانِ الْمُعَمَّدَانِي لِسَنَةِ ١٦٨٩ مِنْ الْقَرْنِ ١٧، بِحَسَبِ اتِّبَاعِهِمْ لِلْأَهْوَتِ الْعُصُورِ الْوَسْطَى فِي هَذَا الْأَمْرِ، إِنَّ اللَّهَ لَيْسَ صَانِعُ الشَّرِّ. وَإِلَّا فَإِنَّ هَذَا سَيَجْعَلُ اللَّهَ ذَاتَهُ خَاطِئًا. فَمَا الرَّابِطُ بَيْنَ اللَّهِ وَالشَّرِّ؟ اللَّهُ هُوَ الْمُسَيِّطِرُ، فَمَا مِنْ شَيْءٍ يَخْدُتُ خَارِجَ سُلْطَانِهِ، لَكِنَّ الْأُمُورَ تَخْدُتُ حَسَبَ الْعِلَلِ الْأُولَى وَالثَانَوِيَّةِ. الْأُمُورُ تَخْدُتُ حَسَبَ الْعِلَلِ الْأُولَى وَالثَانَوِيَّةِ. وَمَرَّةً أُخْرَى، هَذِهِ لَمْ تَكُنْ مُجَرَّدَ عَقِيدَةٍ مُصْلِحَةٍ. وَلَمْ تَكُنْ مُجَرَّدَ عَقِيدَةٍ بِيُورِيتَانِيَّةٍ مِنَ الْقَرْنِ ١٧. بَلْ فِي الْوَاقِعِ كَانَتْ عَقِيدَةً ثُومًا الْإِكُونِيَّةِ مِنَ الْعُصُورِ الْوَسْطَى.

"أَلْخَيْرُ نَقَبُلُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَالشَّرُّ لَا نَقَبُلُ؟" مَاذَا يَقُولُ أَيُّوبُ لَنَا؟ فِي الْوَاقِعِ، مَهْمَا كَانَتْ الْإِجَابَةُ الْفَلَسْفِيَّةُ وَاللَّاهُوتِيَّةُ عَنْ سُؤَالِ مُشْكَلَةِ الْأَلَمِ، فَمِنْ الْمُهْمِ لِلْعَايَةِ أَنْ نَحْيَا حَيَاتَنَا بِيَقِينٍ مُطْلَقٍ أَنَّ مَا مِنْ شَيْءٍ خَارِجَ سُلْطَانِ اللَّهِ وَتَحْكُمِهِ الْمُطْلَقِ، فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ، فِي الْخَيْرِ أَوْ الشَّرِّ. مَاذَا يَقُولُ بُولُسُ فِي الْآيَةِ ٢٨ مِنَ الْأَصْحَاحِ ٨ مِنْ رِسَالَةِ رُومِيَّةٍ؟ "كُلُّ الْأَشْيَاءِ"، وَهَذَا يَقِينُنَا، "وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ الْأَشْيَاءِ تَعْمَلُ مَعًا لِلْخَيْرِ". هَذَا مَا يَنْبَغِي أَنْ نَتَّكِلَ عَلَيْهِ. وَهَذَا مَا يَنْبَغِي أَنْ يُعَرِّبَنَا.

الدُّكْتُورُ دِيرِيكُ ثُومَاسُ هُوَ الرَّاعِي الْأَسَاسِيُّ لِلْكَنِيسَةِ الْمَشِيخِيَّةِ الْأُولَى فِي مَدِينَةِ كُولُومْبِيَا، بِوِلَايَةِ سَاوْتِ كَارُولِينَا، وَأُسْتَاذُ اسْتِشَارِيٍّ لِعِلْمِ اللَّاهُوتِ النِّظَامِيِّ وَالرَّعَوِيِّ فِي كَلِّيَّةِ اللَّاهُوتِ الْمُصْلِحَةِ. وَهُوَ عَضُو هَيْئَةِ التَّدْرِيسِ فِي خِدْمَاتِ لِيْجُونِيَرِ، وَقَدْ كَتَبَ الْعَدِيدَ مِنَ الْكُتُبِ، بِمَا فِي ذَلِكَ كِتَابُ "كَيْفَ يَقُودُنَا الْإِنْجِيلُ إِلَى مَوْطِنِنَا" (How the Gospel Brings Us All the Way Home).